

الكشاف

ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح وأنهضها بما يبهز الألباب القوارح من غرائب نكت يلفظ مسلكها ومستودعات أسرار يدق سلكها علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام والمتكلم وإن برز أهل الدنيا في صناعة الكلام وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعاني وعلم البيان وتمهل في ارتيادهما أونة وتعب في التنقير عنهما أرمنة وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله وحرص على استيضاح معجزة رسول الله بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ جامعاً بين أمرين تحقيق وحفظ كثير المطالعات طويل المراجعات قد رجع زماناً ورجع إليه ورد عليه فارساً في علم الإعراب مقدماً في حملة الكتاب وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها مشتعل القريحة وقادها يقطان النفس دراكا للوحة وإن لطف شأنها منتبهاً على الرمزة وإن خفى مكانها لا كزاجاسيا ولا غليظاً جافياً متصرفاً ذا دراية بأساليب النظم والنثر مرتاضاً غير رخيص بتلقيح بنات الفكرة قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف وكيف ينظم ويرصف طالما دفع إلى مضايقه ووقع في مداخسه ومزالقه .

ولقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية كلما رجعوا إلي في تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب أفاضوا في الاستحسان والتعجب واستطبروا شوقاً إلى مصنف يضم أطرافاً من ذلك حتى اجتمعوا إلي مقترحين أن أملئ عليهم الكشف عن حائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل فاستعفيت فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد والذي حداني على الاستعفاء على علمي أنهم طلبوا ما الإجابة إليه علي واجبة لأن الخوض فيه كفرض العين ما أرى عليه الزمان من رثاثة أحواله وركاكة رجاله وتقاصر همهم عن أدنى عدد هذا العلم فضلاً أن تترقى إلى الكلام المؤسس على علمي المعاني والبيان فأملت عليهم مسألة في الفواتح وطائفة من الكلام في حقائق سورة البقرة وكان كلاماً مبسوطاً كثير السؤال والجواب طويل الذيول والأذنان وإنما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم وأن يكون لهم منارا ينتحونه ومثالا يحتذونه فلما صمم العزم على معاودة جوار الله والإنابة بحرم الله فتوجهت تلقاء مكة وجدت في مجتازي بكل بلد من فيه مسكة من أهلها وقليل ما هم عطشى

الأكباد إلى العثور على ذلك المملى . متطلعين إلى إيناسه حراسا على اقتباسه فهز ما رأيت من عطفي وحرك الساكن من نشاطي فلما حطت الرجل بمكة إذا أنا بالشعبة السنية من الدوحة الحسنية : الأمير الشريف الإمام شرف آل رسول ﷺ أبي الحسن علي بن حمزة بن وهاس أدام ﷺ مجده وهو النكتة والشامة في بني الحسن مع كثرة محاسنهم وجموم مناقبهم أعطش الناس كبدا وألهبهم حشى وأوفاهم رغبة حتى ذكر أنه كان يحدث نفسه في مدة غيبتني عن الحجاز مع تراحم ما هو فيه من المشادة بقطع الفيافي وطى المهامة والوفادة علينا بخوارزم ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض فقلت قد ضاقت على المستعفى الحيل وعيت به العلل ورأيتني قد أخذت مني السن وتقعقع الشن وناهزت العشر التي سمتها العرب دقاقة الرقاب . فأخذت في طريقة أخصر من الأولى مع ضمان التكثير من الفوائد والفحص عن السرائر ووفق ﷺ وسدده ففرغ منه في مقدار مدة خلافة أبي بكر الصديق عليه السلام وكان يقدر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة وما هي إلا آية من آيات هذا البيت المحرم وبركة أفيض علي من بركات هذا الحرم المعظم أسأل ﷺ أن يجعل ما تعبت فيه منه سببا ينجيني ونورا لي على الصراط يسعني بين يدي وبيمينني ونعم المسؤول . سورة فاتحة الكتاب .

مكية . وقيل : مكية ومدنية .

لأنها نزلت بمكة مرة وبالمدينة أخرى